

الحجّ في الأدب العربي

مختارات شعرية

أنشد الإمام علي بن الحسين عليه السلام وقد كان متعلّقاً بأستار الكعبة:

يا من يجيب دعاء المضطر في الظلم
يا كاشف الضرّ والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت قاطبة
وأنت وحدك يا قيوم لم تنم
أدعوك ربّ دعاءً قد أمرت به
فأرحم بكائي بحق البيت والحرم
ان كان عفوك لا يرجوه ذو سرف
فمن يجود على العصاين بالنعم

ومع ميمية ابن القيم وهو يصور رؤية البيت:

ولما رأته أبصارهم بيته الذي قلوب الورى شوقاً إليه تضرّم

كَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْصَبُوا قَطُّ قَبْلَهُ لِأَنَّ شَقَاهُمْ قَدْ تَرَحَّلَ عَنْهُمْ
فَلِلَّهِ كَمِ مِنْ عَبْرَةٍ مُهْرَاقَةٍ وَأُخْرَى عَلَى أَثَارِهَا لَا تَقْدَمُ
وَقَدْ شَرِقَتْ عَيْنُ الْمَحَبِّ بِدَمْعِهَا فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدُّمُوعِ وَيُسْجَمُ
إِذَا عَايَنَتْهُ الْعَيْنُ زَالَ ظَلَامُهَا وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَئِيبُ التَّأَلُّمُ
وَلَا يَعْرِفُ الطَّرْفُ الْمُعَايِنُ حُسْنَهُ إِلَى أَنْ يَعُودَ الطَّرْفُ وَالشُّوقُ أَعْظَمُ
وَلَا عَجَبٌ مِنْ ذَا فَحِينٍ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَنُ فَهُوَ الْمُعْظَمُ
كَسَاهُ مِنَ الْإِجْلَالِ أَعْظَمَ حُلَّةٍ عَلَيْهَا طِرَازُ بِالْمَلَاحَةِ مُعْلَمُ
فَإِنْ أَجَلَّ ذَا كُلِّ الْقُلُوبِ تُحِبُّهُ وَتَخْضَعُ إِجْلَالاً لَهُ وَتُعْظَمُ

ولابن القيم أيضاً تصوير آخر لموقف الحج:

وراحوا إلى التعريف يرجون رحمة
ومغفرة ممن يجود ويكرم
فلله ذاك الموقف الأعظم الذي
كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم
ويدنوبه الجبار جلّ جلاله
يباهي بهم أملاكه فهو أكرم
يقول عبادي قد أتوني محبة
وإني بهم بر أجود وأرحم
فأشهدكم أني غفرت ذنوبهم
وأعطيتهم ما أملوه وأنعم
فبشراكم يا أهل ذا الموقف الذي
به يغفر الله الذنوب ويرحم

فكم من عتيق فيه كمل عتقه
 وآخر يستسعي وربك أرحم
 وما رؤي الشيطان أغيط في الوري
 وأحقر منه عندها وهو الأم
 وذاك الأمر قد رأه فغاظه
 فأقبل يحثو التراب غيظاً ويلطم
 وما عاينت عيناه من رحمة أتت
 ومغفرة من عند ذي العرش تقسم
 بنى ما بنى حتى إذا ظن أنه
 تمكن من بنيانه فهو محكم
 أتى الله بنياناً له من أساسه
 فخر عليه ساقطاً يتهدم
 وكم قدر ما يعلو البناء وينتهي
 إذا كان يبنيه وذو العرش يهدم

من شعر أبو زكريا الصرصري:

وأحرموا ثم لبّوا خاشعين لذي الـ
 —جلال كلُّ إلى مولاه مبتهلُ
 وساوت السوقُ الأملاك تحسبهم
 إلى الحساب من الأجداث قد نسلوا
 وشارفوا عرفات فاستبان لهم
 أن الحجيج إلى ما حاولوا وصلوا

فيا له موقفاً فيه لو افده
جوائز الفضل والرضوان تُبتدّل
وفاض بالمشعر الإحسان فوقهم
وبالمنى في منى من ربهم حصلوا
ثم استقلوا إلى البطحاء حين قضاوا
رَمِي الجمار وقد نالوا الذي أملوا
طافوا بذات الستور ازداد معلمها
جلالة وبهاء ليس ينفصل
وأحسنوا السعي بين المروتين وفي
المقام بعد الطواف وانتقلوا
شفوا بزمزم داء الصدر واعتمروا
وما بدا لهم من صالح عملوا
وودعوا البيت والأحشاء واجفة
وفي القلوب لآلام النوى شغل

للشيخ محمد علي كمونة، في وقت كان السفر على ظهور الإبل:

نرى ظعننا يبغي (منى) فا (لمحصباً)
فادنى إليه اليعملات وقرباً
وقوؤض من بعد الإقامة راحلاً
يلفّ الربى بالبيد والبيد بالربى
وجشمها شرق البلاد وغربها
إذ جاز منها سبباً أم سبباً

ليقضي عليها من (منى) غاية المنى
 فقد شاقه من (شعبه) ما تشعبا
 وقد جنحت (للخيف) حق كأنما
 قوائمها نيطت بأجنحة الصبا
 وأرسلها وخذاً إلى ذلك الحمى
 ومنه الجناب الرحب حياً ورحبا
 وعرّس كما يستريح ركابه
 بأعطافها مما عراها وأتعبا
 ولما حدا الحادي وهاجها
 رواقص للدلاج هجن تطربا
 ووجّه تلقاء (المعرّف) وجهه
 ليقضي به فرض (الوقوف) تقربا
 ولما قضى (التعريف) والشمس آذنت
 - وقد أذف الترحال - أن تتحجبا
 وحيث (أفاض) الناس أرخى ركابه
 وألوى به (للمشعرين) ونكبا
 وقد رقصت عند (المحسر) من (منى)
 به وعلى أكوارها ماس مطربا
 وضجّ فضجّ الناس كلّ مؤدياً
 من (الذكر) ما نصّ الإله وأوجبا
 ومال الى جمع (الجمار) و(رميها)
 ولما رماها ساق (هدياً) وقربا

وطاف (ببيت الله) سبعا إنابةً
إليه وصلّى في (المقام) وعقباً
وقد أوسع (الأركان) عند (استلامها)
دموعاً فخيّل السيل قد بلغ الزبي
وأكثر عند (المستجار) تنصلاً
إلى ربّه مما أساء وأذنباً
وساغ إليه الورد من ماء (زمزم)
وأعذب بماء ورده ساغ مشرباً
و(اللسعي) بين (المروتين) مهرولاً
سعى وبجلباب الخضوع تجلبياً
وسارع (للتقصير) غير مقصّر
وشرق (للتشريق) ينحو (المحصباً)
ولما قضى نسكاً (مناسك) حجّه
نحاً (يثرى) لا أبعد الله يثرى^(١)

من شعر وليد الأعجمي:

طاف «بالبيت» فاستهلت جُفونهُ
واحتواه من الجلالة شوقُ
شاعر عاشق له سُبحاتُ
هائم قلبُهُ، وفي كل وادٍ
يتملّئ من الجمال فنوناً
ويداري هواه بالشعر نحوي
وانثنى ضارعاً وللدمع سئمطُ
عبراتٍ فاضت بهنّ شوونهُ
وبأعماقه استفاق دفينهُ
بهوى المكّتين بادٍ حنينهُ
عند «أمّ القرى» تهيج شجونهُ
وجمال الإيمان شتّى فنونهُ
فبياربه بالنشيد أنينهُ
لؤلؤيٌّ مننّزٌ مكنونهُ

يشتكى باللوى لواعج شوق
 بثَّ شكواه بالقريض حزيناً
 وتمنى وهو الذي قد تساوت
 هيبته «البيت» علّمته بياناً
 رقّ باللفظ شعره، والمعاني
 كلُّ أنشودة له حين تُتلى
 كالغواني الحسانِ مسنّ دلالاً
 أيها الشاعر المشوق تمهّل
 يحِفُّ القلبُ خاشعاً في جمّاهَا
 و«مقام الخليل» فيضٌ ونورٌ
 وصلاة «بالبيت» تعدلُ عمراً
 عَرَفَ الأَنَسَ شاعرٌ أرهقتُهُ
 ملاً الحبُّ قلبه والحنايا
 واستنارت له سبيل هُدهاه
 وتسامى بالروح حيث استقرّت
 مطمئنّ الضمير طَلَقَ المحيا
 وله في النهار سَبيحٌ طويلٌ
 ويعاني بناشآت الليالي
 ويناجي الإله بسرّ خفيّ
 حسبُهُ وقفةٌ بجُنج الدياجي
 حسبُهُ سجدةٌ ستغدو كتاباً
 ورحيقٌ من نبع «زمزم» يروي
 فَجَرَّتْهَا عناية الله عيناً

وبسّلع وساكنيه سكونه
 ومن الشعر ما يُريحُ حزينه
 عنده أُمْنِيَاتُهُ وَمَنُونُهُ
 بالهوى زاد والتقى تبيينه
 حين راقَت يَزِينُهَا وتَزِينُهُ
 تُنَعِّشُ القلبَ رقةً وتُليّنُهُ
 وجنى الروض قد تدلّت غصونه
 «كعبة الله» هذه و«يَمِينُهُ»
 و«بأركانها» يطيب ركونه
 للبرايا مكانه ومكِينُهُ
 بالضلالات قد تَقَصَّتْ سنونُهُ
 بالخطايا ذنوبه وديونُهُ
 ألقاً من سناه ضاءت دجونُهُ
 فتلاشت أوهامه وظنونُهُ
 جَبَّهَتْه على «الحصى» وجَبِينُهُ
 رَضِيَتْ نَفْسُهُ وَقَرَّتْ عِيونُهُ
 تتوخاه في الحياة شؤونه
 وَطَاءَةً، رَبُّه عليها يُعِينُهُ
 عن سوى الخالق العظيم يصونه
 والخاليون هُجَّعٌ ومُجُونُهُ
 تَتَلَقَّاه بالحسابِ يَمِينُهُ
 كلُّ صادٍ تَسْنِيمُهُ وَمَعِينُهُ
 أيمن منها أنهاره وعيونُهُ

ثَرَّةً بِالْعَطَاءِ وَبِالْخَيْرَاتِ تَجَّ
 وَشِفَاءً مِنْ كُلِّ سُقْمٍ وَدَاءٍ
 يَغْمُرُ الْقَلْبَ بِالمَسْرَاتِ وَادٍ
 وَهَدِيرِ الدَّعَاءِ لِلَّهِ حَوْلَ الـ
 وَاخْتِلافِ الأَلْوَانِ فِي الْحَجِّ
 قَصَدُوا مَوْطِنَ الرِّجَاءِ وَفودًا
 يَسْتَعُونَ الرِّضَا وَيَرْجُونَ رَبًّا
 وَعَجَّلْنَا إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى
 وَبِحُومِ المِضْمَارِ لَنْ يَتَسَاوَى
 وَمَضَى رَكْبُهُ إِلَى «عَرَفَاتِ»
 وَمِنَ الدَّمْعِ هَلَّ بِالسَّفْحِ سَفْحُ
 جَذْوَةِ الوَجْدِ بَيْنَ جَنْبِيهِ شَبَّتْ
 كُلَّمَا حَاوَلَ اصْطِبَارًا عَلَيْهِ
 وَطَيُوبِ «الْخِيَامِ» فَاحَتْ فَقلْنَا
 وَرِيحُ البَشْرِى وَبَيْنَ يَدَيْهَا
 وَالغَمَامَاتُ ظُلَّةٌ تَتَنَزَّى
 بِرَدِّهِ يَطْفِئُ الأَوَامَ كَرِيمًا
 وَتَرَى أَوْجُهَ العِبَادِ وَضَاءً
 نَاضِرَاتٍ لِرَبِّهَا نَاطِرَاتٍ
 وَضَجِيجُ الحَجِيجِ يَعلُو وَيَجلُو
 رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ رُشدًا
 نَحْجِدُ الأَمْنَ وَالسَّعَادَةَ فِيهِ
 وَلَقَدْ ذَلَّتْ الرِّجَالُ وَدَانَتْ

اجُّهَا طَعَامَ طُغَمٍ سَمِيئِهِ
 يَسْتَلَوِي مَبْطُونُهُ وَطَعِينُهُ
 آهَلَاتٌ مِنْهُ الصَّفَا وَحُجُونُهُ
 بَيْتَ طَابَتْ أَنْغَامُهُ وَلُحُونُهُ
 وَالأَلْسُنَ آيَاتٍ بَهِنَّ يَقْوَى يَقِينُهُ
 وَسَحَابِ الرِّضْوَانِ سَحَّ هُتُونُهُ
 مَا نَحَّا فَضْلُهُ لِمَنْ يَسْتَعِينُهُ
 يَوْمَ لَا يَنْفَعُ القَرِينَ قَرِينُهُ
 أَعْوَجِي مُجَرِّدٌ وَهَاجِينُهُ
 وَبِوَادِي نُعْمَانَ حَطَّتْ ظُغُونُهُ
 فَوْقَ خَدِيهِ يَسْتَدِرُّ سَخِينُهُ
 كَشَبَا السَّيْفِ أَرْهَفْتَهُ قُيُونُهُ
 يَهْتِكُ الدَّمْعُ صَبْرَهُ وَيُخُونُهُ
 عَطَّرَ الرِّوَضَ عَابِقًا نَسْرِينُهُ
 تَهَادَى بِيضُ السَّحَابِ وَجُونُهُ
 بِالرَّبَابِ الرِّطِيبِ إِذْ حَانَ حِينُهُ
 وَيُنْقِي الفُؤَادَ مَمَّا يَرِينُهُ
 زَانَهُ نَضْرَةُ النَّعِيمِ وَلِينُهُ
 أَزْلَقَتْ حُوزُهُ إِلَيْهِمْ وَعِينُهُ
 بِالمَنَاجَاةِ وَقَفَعُهُ وَرَنِينُهُ
 وَسَبِيلًا إِلَى العُلَا نَسْتَبِينُهُ
 فَلَقَدْ عَزَّ مِنْ سَبِيلِ أَمِينِهِ
 لِذِي كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ تُدِينُهُ

نَقَضَتْ عَهْدَهَا وَخَانَتْ فَهَانَتْ
 وَرَأَيْنَا بِأَعْيُنِ الْعَجْزِ مَنًّا
 عَزَمَةٌ مِنْكَ تَبَعْتَ الْعِزْمَ فِينَا
 أَمَلًا يَمَلُّ النُّفُوسَ فَيَمِضِي
 كَالرَّبِيعِ الضَّحُوكِ يَطْفَحُ بِشِرًّا
 وَعَلَى سَجْعِ طَيْرِهِ وَغِنَاهُ
 أَجْدَرُ النَّاسِ بِالْكَرَامَةِ عَبْدُ
 وَاعْتَرَاهَا ذُلُّ الْفَسَادِ وَهَوْنُهُ
 هَجَعَةَ اللَّيْلِ حِينَ دَيْسَ عَرِينُهُ
 صَارِمًا حَادُّهُ وَرَيًّا كَمِينُهُ
 يَحْطِمُ الْقَيْدَ بِالْإِبَاءِ رَهِينُهُ
 بِأَزَاهِيرِهِ زَهَاهَا تَلْوِينُهُ
 رَفٌّ زَيْتُونُهُ وَرُفْرَفٌ تِينُهُ
 تَلَفَّتْ نَفْسُهُ لِيَسْلَمَ دِينُهُ

الهوامش :

(١) ديوان ابن كمونة، النجف سنة ١٩٤٨ : ٢٥-٢٧.